مسابقة لطلاب السنة التوجيهية (١ ، ٢)

فيـــــدون

للأستاذ كمال دسوقي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

— وهنا — وبعد هذه الأدلة على خلود الروح التي قدمها سقراط — ما يزال بسيمياس وسيبيز بقية من شك تبدو في تهامسهما — حتى إذا استوضحهما سقراط جلية رأيهما في تدليله على خلود الروح تقدم سيمياس ، فشكك في إمكان البحث عن حقيقة الروح ما دمنا في هذه الحياة ، ورأى مع هذا أن البحث عن كنه الروح ومصيرها أمر لابد منه — ثم قدم للتشكيك في أدلة سقراط نظريتهم الفيثاغورية القائلة بأن الروح هي انسجام عناصر البدن واتساقه Harmony — والتي لو أخذنا بها لجاز أن تفنى الروح قبل فناء الجسد — على نحو ما يفنى النغم المنسجم الإلهي لمجرد تمزق أوتار القيثارة أو تحطمها مع بقاء مادتها .

وهنا يشاء سقراط أن يعارض فيثاغورية بفيثاغورى ، فيحث سيبيز على مناهضة زميله ، ويقول هذا إنه يؤمن بأزلية الروح في عالمها الأول — ولكنه لا يعتقد بخلود الروح في عالمها الآخر. وهو إذ ينكر عليها الخلود لا ينكر قوتها وسموها وبقاءها على ضعف البدن وخضوعه وفنائه ، وليس يدحض لديه دليلاً على هذا الامتياز للروح ما يقول به العامة من ضرورة بقاء النساج بعد موته زمناً أطول لأن آخر معطف قام بنسجه لم يزل باقيا . بل كل ما يدل عليه هذا التشبيه أن كل روح تفنى عدة أجساد كما أفنى النساج عدة أثواب — ومن يدري — فلعلها لكثرة ما تعاني من إرهاق التولد والوفاة وتكررهما تفنى ذات مرة إلى الأبد . دون أن نحس بها أو يكون لنا بمصيرها علم — إذ لا قدرة لنا على تتبعها في كل جسد جديد تحل فيه . وعلى هذا — فما لم نستوثق من خلود الروح إلى الأبد — لم نزل نرهب الموت .

ويأخذ هذا القول من نفس السامعين ، ومن نفس الذين يقص عليهم فيدون بعد — كل مأخذ — فيرتابون ويشكون في كل ما قيل ، ويعاودهم الجزع والإشفاق على مصير الروح ، ولكن سقراط يستجمع فطنته ولباقته ليستأنف الجدل أقوى مما كان . وليطمئن المجتمع على أن أرواحهم بعد الموت لن تذروها الرياح ، فيداعب خصلات شعر فيدون ، ثم يحذر من المغالاة في كره المنطق ، وعدم الثقة بالناس نتيجة الجهل بالعالم ، وقلة الخبرة في اختيارهم — وكون أكثرهم شريرين وأقلهم أخياراً — والمآل كذلك في البراهين والأدلة ، التي يظهر لنا كبار المجادلين أكثرها باطلاً وأقلها حقاً فيكرهون إلينا الأدلة فلا نثق بها أو نوقن بمعرفتها — ويحاول سقراط أن يبين لمحدثيه حقيقة موقفه من الجدل ، وبعده عن أن يخدعهما أو يخدع نفسه ، ثم يطلب إليهما أن يقوماه إذا أخطأ ، وأن يعملا معه لنصرة الحقيقة .

ويعود سقراط إلى تلخيص شكوك صاحبته في قضية أو قضيتين ، ثم ينتزع منها إقراراً أكيداً على ما في قوله بالتذكر وأزلية الروح من طرافة وصدق لا يشكان فيه ، ثم يناقض هذا التسليم منها برأيها في الروح كاتساق للبدن ، قائلا إنه إذا كانت الروح تشبه انسجام النغم ، وكان البدن هو أوتار القيثارة ومادتها فلا يعقل أن يكون للروح توافق قبل وجود البدن الذي هو القيثارة في مذهبهما . بل لابد — لو صحت نظريتهما — ألا يتم توافق الأصوات والنغم إلا بعد الأوتار وتنافرها — كما أنه يفنى قبلها جميعاً . وينتهي بهما سقراط إلى ضرورة إسقاط أحد الرأيين ، فيطرح سيمياس مبدأه لأنه ظني ، ويسلم بنظرية التذكر لأنها عنده يقينية — ويستطرد به سقراط فيبين له أن الانسجام نتيجة تناسق الأجزاء ، ولهذا كان يتدرج بين التناسق التام والتناسق الأقل — تبعاً لتفاوت تناسق الأجزاء في ذاتها كعناصر مكونة لهذا المركب ، وأن الروح إذن تصبح تنافراً فيما لو اتصفت بالرذيلة ، لأن الروح مثال مطلق في تناسقه أو تنافره — وليست نسبية كالنغم — والروح هي دائماً التي تقود الجسد ، وتفرض عليه رغباتها — فلا هي إذن في انسجام معه — ولا هي نتيجة له كالأنغام للقيثارة .

ويردد سيبيس مخاوفه الأولى من فناء الروح لحلولها فى عدة أجساد ، فيرى سقراط أن هذا يمت بصلة إلى موضوع الكون والفساد . ويقترح أن يدلى إليهم فيه بتجربته . ومؤداها أنه فتن منذ حداثته بالعلم الطبيعى ظناً منه أنه العلم الذى يبحث عالل الأشياء — من أين توجد — إلى أين تصير ، وفيم كان وجودها وفسادها ، وما العنصر الذى تفكر به .. الخ ولكنه لم يجد لدى هذا العلم ما يقوله فى هذه الأمور ، وطبيعى ألا يجدها — فما يريده هو ليس من مباحث علم الطبيعة — ولكنه إلى الميتافيزيقا أدنى — والنتيجة أن بحثه عن علل هذه الأمور فى علم الطبيعة قد شككه فى أبسط معارفه — ثم إنه وجد بغيته فى عبارة قيل له إنها توجد فى كتاب لأنكساغوراس « وهى أن العقل هو العلة المدبرة لكل شىء — فراح يسعى وراءه ويعلق عليه آمالا كباراً — حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ... لقد كان سقراط يبحث حينئذ عمن يقول له ، إن الكون فى أحسن صورة له — وأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان — ولكنه — يا للأسى ! . وجد أنكساغوراس بعد أن ألقى بعبارته الجميلة — هذه جزافاً — يبعد فى تفسيرها عما كان يريده سقراط أن يفعل — فأين إذن قوله بالعقل — وفيم إذن رجوعه إلى ما قال الأولون من خلط ؟ لقد كان ينبغى عليه أن يعلل بقاء سقراط قابعاً هكذا فى سجنه — بأن العقل هو الذى يشير عليه بهذا ما دام الأثينيون قد أرادوا ذلك ولو ظلماً — لا أن يأتى بتعليلات أخرى ولو كانت هى العلل الحقيقية فى علم الطبيعة ، هو يريد من علم الطبيعة أن يبحث عن العلل الخفية والأسباب البعيدة — لا القريبة ... التى يسميها هو حالة — وبالجملة يريده أن يعلل كل شىء يرده إلى قوة عليا مدبرة تتصف بالعقل والخير والكمال ، وهو ما لم يجد سقراط من يستطيع أن يعلمه إياه .

وعاد سقراط من دراسة هذه المذاهب خاوى الوفاض ، وكل همه أن يبقى على عين بصيرته ، وتقاء روحه — أو « عيانه » — الذى يستطيع به أن ينفذ إلى باطن الأشياء يتأملها ويتعرف حقيقتها ، ويفض يده من الأشياء ليبحث عن صورها الكاملة فى عالم المثل — وقولة : (هذا سبيلى التى سلكتها : فرضت بادىء الأمر مبدأ ... ثم أخذت أثبت صحة كل ما اتفق معه ... الخ ص ٢٦٤ من الترجمة العربية) حجة يجب أن يقف عندها طويلا طلاب المسابقة — لأنها تثبت لسقراط السبق فى القول بنظرية المثل كما عرضت لأول مرة فى محاورة برمنيدس ، باعتراف أفلاطون — وهو كاتب الحوار — ولكن مناقشة زينون وبرمنيدس الإيليين لهذه النظرية الجديدة التى يعرضها سقراط وهو فى العشرين من عمره (سنة ٤٥٠ ق . م — كما تدل عليه ظروف المحاورة) — قد حملت هذه المناقشة سقراط على التراجع والحذر ، والعمل على أن يجمع لنظريته الأدلة التى تقويها — حتى لا يهاجمها أحد آخر غير هذين ، دون أن يتحدث عنها إلا فى ظروف خاصة ، وفى هذه الحجة وحدها ما يكفى للرد على المؤرخين الذين لا يريدون أن يعترفوا لسقراط بنصيب فى نظرية المثل .

إن الأشياء الجميلة توحى إلينا بالجمال المطلق ، والخيرة بالخير المطلق ، والعادلة بالعدل المطلق ؛ فهذا مثل كلية مطلقة تذكرنا بها الأشياء الجزئية النسبية التى تدركها حواسنا ، وهذه الأشياء جميلة وخيرة وعادلة بقدر مشاركتها فى مثال الجمال والخير والعدالة ، وكذلك مثل الكبر والصغر والتساوى ، وبهذا نكون قد أثبتنا نظرية المثل ومشاركة الاشياء المحسوسة فيها مشاركة نسبية تتفاوت بين الكبر والصغر أو تجمع بينهما بالنسبة إلى شىء وآخر . أما المساواة التامة فلا يمكن أن تصلها الأشياء لأنها لا توجد إلا فى مثال التساوى المطلق الذى تنزع إليه هى أبداً .

والكبر والصغر إن أمكن اجتماعهما فى شخص بعينه بالنسبة إلى شخص وآخر ، فإن مثالى الكبر والصغر لا يمكن إلا أن يكونا متضادين ، لأن المثل كلية مطلقة بينما الأشياء المشاركة فيها جزئية نسبية . وبهذا يصح أن يتولد الصغير من الكبير ، أو الحى من الميت ، دون أن يعنى ذلك تولد الكبر من الصغر والحياة من الموت — هى أن الأشياء التى تشارك فى مثلها إلى حد كبير فتعارض مع أضدادها تعارض مثلها ذاتها — لأن جزئياتها تصبح هى الأخرى مشاركة فى المثال — كالنار والثلج — كل ذرة أو جوهر فيها مشارك فى مثال الحرارة والبرودة وكالزوجى والفردى من الأعداد — كل وحدة مما يدخل فى

تركيبها من العدد إما واحد واحد ، أو زوج زوج — فالثلاثة ثلاث وحدات ، والأربع وحدتين زوجيتين..الخ وهذه الأضداد تتعارض وتتطارد ، حتى يتراجع أحدها ويثبت الآخر . وتراجعه لا يدل على فنائه بل هو مجرد تراجع أمام خصم — أو التسليم له —

وقس على هذا الموت والحياة ، فهما متنافران متطاردان أبداً لا يتضمن أحدهما الآخر ، وإن أمكن نشوء الحيّ من الميت كما كان قرر سقراط — وإذا تأملنا الحياة وجدنا أن لها مبدأ ملازماً وشرطاً ضرورياً لا توجد إلا به هو الروح — وهو لمشاركته الكاملة في مثال الحياة لا يقبل الموت بدوره . فالروح كمثاله الذي يشارك فيه — مثال الحياة — غير قابل للفناء ، أي أنه أبدي خالد — ولكنه يتوارى ويختفي — ولا يزول . إذا غلبه خصمهُ : الموت . فالروح المشاركة في مثال الحياة يتصارع عليها مبدأ الخلود والفناء . وحين يتغلب هذا الأخير تتراجع الروح وتختفي ولا تزول — لأنها بطبيعتها خالدة باقية يستحيل عليها أن تقبل ضدها : الفناء — أما البدن فهو الذي يفني لأنه مشارك من قبل في مثل الموت والفناء .

الروح إذن خالدة أبدية . وهي أحق بالرعاية من البدن الفاني لأن كل خطر يتهدد مصيرها يهددها إلى الأبد — وإذا جاز لنا أن نفرح بخلاص أرواحنا من أجسادها فيجب أن نكون قد هيأنا لها أسباب السعادة بمزاولة الحكمة والفضيلة . فهما زادها إلى الآخرة .

والطريق إلى الآخرة عسير ملتو ، لا تهتدي له إلا الروح الفاضلة الحكيمة ، حيث تخلد في نهاية في النعيم السرمدي . أما الأرواح الفاسدة الشريرة فتضل طريقها وتمضي متعثرة حتى تستقر في الشقاء الأبدي .

والحياة الآخرة يتقدم سقراط في وصف منازلها ومواضع الأرواح الخيرة والشريرة منها والمراحل التي تمر بها كل من هذه وتلك في نعيمها وسعادتها ، أو في عذابها وهوانها وتألمها ، وهو يطلق لخياله العنان في هذا الوصف على ما وقف عليه من كتب الأساطير اليونانية وأقوال الشعراء . ولا يريد أن يقطع بصدق هذا الوصف كما ينبغي أن يفعل الحكيم .

ثم إن سقراط يكرر لأصحابه النصح أن يعنوا بأمرهم ومصير أنفسهم ، وألا يدّعوا ما لا يعلمون فيضروا أنفسهم ، ويُنبه رفاقه إلى أنهم إنما يوارون منه الثرى الجثة وحدها . أما الروح فهي سائرة إلى النعيم ، وفي هذا عزاء الأقريطون . ثم يعد خادم السم أن يبادله جميلا بجميل ، ومعروفاً بمعروف ، فلا يؤذيه ولا يسوءه كما يفعل غيره عند موتهم . وحين يعود يستوضحه سقراط طريقة تعاطي السم ، ثم يصلي ، ويتجرع الكأس .

ويبكي الرفاق فيهدىء سقراط روعهم ويخفف لوعتهم — ويرميهم بالجبن والأنوثة ، ويوصي بدين كان له على إسكلابيوس ثم يسلم الروح ...

كمال دسوقي

المدرس بالمنصورة الثانوية

شاعرة ترثي أباها

حنانك قلبي كفاك انهيارْ ... فما مِن شِراك المنايا فرارْ

أما كُنت تعلمُ أن المنايا ... كُؤُوسٌ على كل حي تُدار

أديرتْ على الخلق من آدم ... كُؤوسُ المنايا فلم تنج دار

أبي كان بيتك كهفاً رحيباً ... وأنساً بكل صديق وجار

فما ردَّ بابُك ذا حاجةٍ ... وكُنت المجير إذا الدهر جار

كريم الخلال جوادٌ سما ... لديْك وقد شحَّ أهلُ اليسار

أبي كُنت لي في حياتك نوراً ... هداني كما يُهتدى بالمنار

فهلاً عن الموت حدّثتني ... وعمّا نُلاقي بتلك الدّيار ؟

كأني سمعتُ الملائك إذْ ... تلقوك بدرا عليهم أنار

وقالوا اتخذْ منْ جنان الخلوُ ... د مقرّاً رحيباً فنعم القرار

أبا حُرقة الشوق لو كان قلبي ... حديداً لأودى به الانصهار

أبي كنت للعين والقلب نوراً ... فما لك أبدلت نوراً بنار

سرَتْ في ضلوعي وحاقت بقلبي ... فأسعفته بالدموع الغزار

فلا النار ولت ولا العين كفت ... ومالي بهذا الفراق اصطبار

فمجِّل إلهي بصبر جميل ... فما لي سواك به يُستجارْ

ناهد طه عبد البر